"حروب ذوي القربى" في "مسرح المدينة"

محاورة القتلة

علي
زراقط

بيروت حين تكون تحت الموت.

النظرة القتيلة في الشيشان.

تبدو صورة الصحافي الأجنبي يعدو في أزقة الوسط التجاري لبيروت، فيما الرصاص والمتفجرات تتصاعد خلفه، أليفة جداً لمتتبعي السينما اللبنانية خلال الحرب، مما يجعلها احد أهم كليشيهات الأفلام التي يتم تصويرها عن لبنان. إلا أن هذا لا يمنع المخرج الألماني فولكر شلوندورف من استخدامها في أحد اقوى مشاهد فيلمه، "التزوير"، الذي أنتج عام 1981. يتحدث الفيلم عن قصة صحافي ألماني يأتي إلى لبنان ليشاهد بأمّ عينيه الفساد الصحافي في نقل أخبار الحرب، ويحدد لنفسه قضية محاربة الصورة الكاذبة التي تروّجها المؤسسات الاعلامية الكبيرة. إلاّ أن المخرج، في المقابل، لا يتخلى عن نظرته المسبقة التي حملها معه من ألمانيا عن لبنان. فعلى صعيد الهندسة المعمارية يعتمد على الديكورات الشرقية بالكامل حيث الشرفات الواسعة ذات القناطر الثلاث، والصالة الداخلية الرحبة التي تفضي إلى الغرف مباشرةً، والفرش المصنوع من الأرابيسك بالكامل. فأنت لو بحثت في الفيلم كي تجد بناء واحدا حديثاً، لن تتمكن من ذلك. فكل بيوت لبنان تبدو منتمية إلى هذه العدة الشرقية التي يحملها معه المخرج من ألمانيا. ولكي يكتمل حلم الاستشراق الجميل، على المستشرق "الصحافي" أن يمضي لياليه الغرامية في أحد هذه البيوت. ليالٍ حميمة ساخنة حتى ولو كانت تحت القصف. قد يبدو الأمر ساحراً إلا أن الكليشيهات تتكاثر. فمن صور الخليجيين الموجودين دائماً وبكثرة في الفندق، إلى صورة المرأة تصرخ على الحاجز أننا "طوال عمرنا إسلام ومسيحيي عايشين مع بعضنا، شو اللي اتغيّر؟"، منكرة بذلك أعواماً من الحروب الداخلية لم يكن اولها عام 1958، يتضح لنا أن المخرج قد اتى إلى لبنان كي يصنع فيلمه الخاص به، وكان حمله معه كما أراده ان يكون من ألمانيا. فبدلاً من أن يحارب الشائعات الاعلامية سقط في فخها عامداً متعمداً.

الكرد أيضاً يتألمون.

البوسنة والآرامل

من لبنان وحربه، إلى البوسنة ونسائها المترملات في فيلم "... و لا من يحزنون". النساء اللواتي لم يخرجن بعد من ضغط الواقع، رغم توقف المدافع والرصاص، يمضي معهن المخرج الفرنسي لوران بيكو رينار عاماً كاملاً يخضعن خلاله لعلاج نفسي. يتتبعهن المخرج في مختلف أشكال حياتهن وعلاقاتهن مع أطفالهن وجيرانهن، في مجتمع مليء بالحزن والأسى وخالٍ من الرجال. قد يبدأ النقد من كون نظرة الرجل، المخرج، إلى المرأة أنها امرأة أي إلى كونها نوعاً. فالمخرج يتخذ من النساء اللائي ينظرهن، شريحة تمثيلية "لنساء عشن فترة ما بعد الحرب من غير رجال"، كما عبّر خلال المناقشة بعد العرض، قاصداً بذلك أن يرى في تجاربتهن تجربة عالمية يمكن اسقاطها على كل تجربة حرب، "وخصوصاً الحرب العالمية الثانية التي عانت منها فرنسا"، على ما عبّر هو ايضاً. القصد من الفيلم رواية عذابات نساء في تجاوز محنة الحنين إلى أزواجهن، والصعوبات اليومية التي يواجهنها، متجاهلاً بحث الخلفيات التاريخية والاجتماعية والسياسية التي يأتي منها هؤلاء النساء، الأمر الذي دعا أحد الحاضرين الى القول: "هذا الفيلم قصة فرنسية عن نساء في حرب البوسنة، فالفرنسيون قادرون على الاشتغال بالرواية، روايتهم هم، فيما ينشغل البوسنيون كما اللبنانيون بأن يعيشوا. البوسنيون كما اللبنانيون يريدون من يقول لهم حقيقتهم".

عن كوابيس الشيشان

فيما يعمل الفيلم الفرنسي عن البوسنة على إيجاد صيغة تجعل التجربة البوسنية مفيدة لفهم التاريخ الفرنسي، يحاول الفيلم الوثائقي الألماني عن حرب الروس في الشيشان، "الغربان البيض - كوابيس الشيشان"، للمخرجين يوهان فايند و تمارا ترامبه، إيجاد عقدة ذنب حيال الذهاب إلى الحرب، في نوع من الاسقاط البسيط على التاريخ الألماني.

إلا أن هذا الاسقاط يبدو منطقياً إذ أنه لا يتعدى حدود الاحساس الانساني العام حيال جنود تطوعوا للحرب الروسية فانساقوا إلى قدر غير معروف. يلاحق الفيلم شخصياته حاملاً موقفاً واضحاً ضد الحرب يعطيه الشرعية لمتابعتهم في ما آلت إليه حياتهم من كآبة ومآسٍ.

لاجئون وأكراد

من احباط المقاتلين الروس العائدين من الشيشان، إلى عبثية الفتاة المراهقة تحمل على ظهرها كيساً من القش مليئاً بالألغام الأرضية، تبدو الصورة عبثية إلى أقصى حدود العبث في مخيم للاجئين الأكراد يلعب فيه الأطفال دور الكبار، بما يملكون من الحلم واحتمال النقاء العاطفي، محاولين حمل مجتمعهم الصغير إلى بر الأمان عشية الهجوم الأميركي على العراق. يستطيع الفيلم أن يعبر قلبك فيدغدغه ويجرحه في آن واحد، مثلما "تستطيع السلاحف أن تطير"، عنوان الفيلم الذي يوحي طاقة وحساسية كبيرة عوّدنا عليها المخرج الإيراني الكردي الأصل بهمان غبادي.

مَقاتل

في النهاية و في اليوم الأخير للعروض يكتمل سرب الحكاية بوثائقي لبناني - أوروبي حول مجازر صبرا وشاتيلا كما رواها القاتلون، يحمل الفيلم عنوان "مَقاتل". بغض النظر عن النظرة السينمائية التي يحملها الفيلم، إلا أن المخرجين الثلاثة الذين تشاركوا في عملية إخراجه، مونيكا بورغمان وهيرمان تايسن من المانيا، ولقمان سليم من لبنان، يستحقون الثناء على الجرأة في محاورة القاتل في بلد يعود إليه القتل من جديد.

على مدار أسبوع من الأفلام التي تروي الحروب، يبقى انطباع واحد لدى مشاهد لبناني، الخوف من أن الحرب لما تنته بعد.

فكما يعبر لقمان سليم نفسه في نقاش ما بعد العرض أن ما نراه في الفيلم من حديث عن المجازر وكيفية تنفيذها يبدو "خبرا باهتا أمام ما نقرأه من اخبار القتل في الصحف اليومية" ■

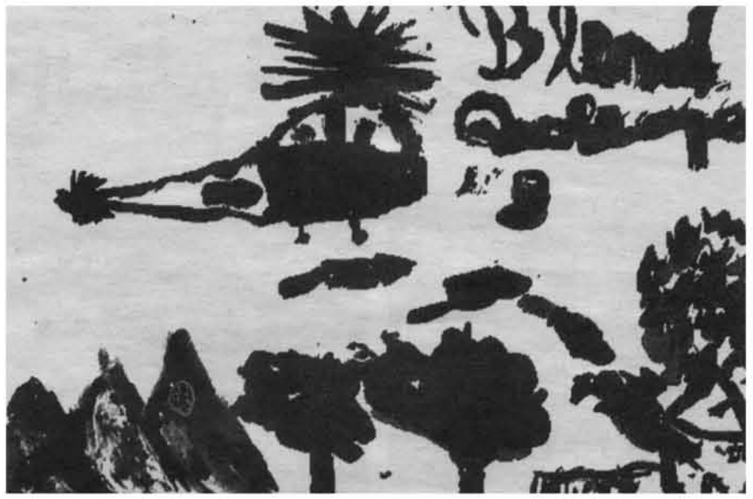

كوسوفو في عين طفل.

مرآة لمسح الالم.